# الفصل الثانى

## تعريف المسجد:

عرف السابقون من أَئِمَّتِنَا الفضلاء المسجد فقالوا: المسجد ـ لغة ـ بكسر الجيم: اسم لمكان السجود. . وبفتح الجيم: الجبهَةُ التى يكون السُّجُود عليها أى: جبهة الإنسان. ويقال: مِسْجَدَة ـ بكسر الميم وفتح الجيم، وهى: السَّجَّادَةُ أو الحصيرة الصغيرة التى يصلى عليها الإنسان.

وأما شرعًا فهو: الموضع الذى يسجد فيه، وكل موضع يتعبد فيه الإنسان فهو مسجد، وعلى هذا فالأرض كلها مسجد ـ إلا الأماكن المتيقن نجاستها، لحديث رسول اللّه ﷺ: «جُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطهورًا. . .» وهذا من خصائص الأمة المحمدية. قال القاضى عياض: لأن مَنْ كان قبلنا كانوا لا يُصَلُّون إلا فى موضع يتيقنون طهارته ـ ونحن خصصنا بجواز الصلاة فى جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته. هذا، ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشْتُقَّ اسم المكان منه، فقيل: مسجد، ولم يُقَلْ: مَرْكَع، ثم إن العُرْف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس[1].

وعلى هذا فالمسجد عندما يُذْكَر تُذكر معه الصلاة التى تُقام فى كل يوم خمس مرات، وهى أظهر شعائر الإسلام، وأقوى الدلائل على الخضوع للّه والاستسلام له ـ سبحانه وتعالى ـ والصلاة فيها السجود الذى هو دليل القرب من اللّه، مصداق قول رسول اللّه ﷺ: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاء».

---

(١) من كتاب «إعلام الساجد بأحكام المساجد (بتصرف).

ويستطيع الإنسان أن يصلى فى أى مكان حسبما بيّنَ الرسول ﷺ فى الحديث: «جُعِلَتْ لى الأرضُ مسجدًا وطهورًا»، إلا أن إقامة الصلاة فى المسجد تجعل الإنسان يكتسب من وراء ذلك فوائد جَمَّة تعود عليه بالخير، وعلى المجتمع بأسْرِهِ بالأمان، فهو يتَعَوَّدُ على الالتقاء بالناس فى صفاء روحى، وصفوف منتظمة، والتحام مع المسلمين فى ترابط وتآلف، وتُعَوِّدُهُ على النظام، حيث يكون خلف إمامه يقتدى به، ولا يتقدم عليه، فإذا قُضِيَت الصلاة نظر إلى أصحاب الحاجات فَمَدَّ يَدَ العون - إن احتاج الأمر وكان فى مقدوره - أو دَلَّ على خير، أو ساعد بكلمة طيبة، وهو فى كل حال له خير موفور، وأجر جزيل، وثواب عظيم يَفاض على قلبه سكينة ورضًا، وعلى أعصابه هدوءًا واطمئنانًا، وصدق الله العظيم: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1].

إن وظيفة المسجد هى توطيد العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، على المستوى الخاص والعام، إلى أن يشمل ما بين الإنسان والإنسانية كلها... والمسجد لم يكن فى صدر الإسلام مكانًا للسجود فحسب، ولم يكن بمعزل عن الحياة وتطورها ورقيها، بل كان المسجد يلتحم مع المجتمع؛ ليقدم له النماذج الطيبة من العناصر الصالحة التى تربت بين جدرانه، ونشأت فى محيطه، وشربت من رحيق الإيمان الصافى؛ لأن الإيمان فى مضمونه صلةٌ بالله عن طريق العبادة، وعلاقة طيبة بالإنسانية فى التعامل، ودفع لعجلة الحياة إلى الرقى والازدهار.

ومن المعلوم أن علاقة الإنسان الروحية لا تقطعه عن الدنيا والتمتع بما فيها من حلال ومباح، فهذا رسول الله ﷺ وَفَدَ عليه رَهْطٌ من ثلاثة أشخاص يسألون عن عبادته - وكأنهم تَقالُّوهَا[2] - فعزم أحدهم على قيام الليل كله،

---

(١) سورة محمد - الآية الثانية.

(٢) أى: عَدُّوها قليلة. والضمير فى «تقالُّوهَا» يعود على عبادتهم التى يُؤدُّونها.

والآخر على صيام الدهر كله، والثالث على الامتناع عن الزواج. . وكل هذا فيه تعطيل لنواميس الحياة ومتطلبات المجتمع، ولكن تأمل ما قاله النبى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «أمَا إنِّى لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقاكُم له، ولكنِّى أَقُومُ وَأَرْقُدُ، وأُصومُ وأفطرُ، وأتزوجُ النساءَ، فَمَنْ رغِبَ عن سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى.

إن الإسلام يمقت الرهبانية المبتدعة، والعزلة عن المجتمع؛ لأن ذلكَ ضياعٌ لطاقة المفروض فيها أن تكون بَنّاءةً فى سبيل تقدم الإنسانية ورقى البشرية؛ لهذا يقول الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص ـ وكان يرهق نفسه بكثرة الصيام والقيام: «صُمْ وأَفْطِرْ، وَقُمْ ونَمْ، فإنَّ لجسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًا، ولعينيك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا (أى لضيوفك). وتأمل فى هذا الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وبين عثمان بن مظعون. يقول الرسول ﷺ: «يا عُثْمَانُ، أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِى؟ فيقول عثمان: يا رَسُولَ الله، ولكن سُنَّتك أطْلُب. فيقول رسول الله ﷺ: «فإنى أنامُ وأُصلِّى، وَأصُومُ، وأفطرُ، وأَنْكَحُ النساء، فَاتّقِ الله يا عُثمان، فإنَّ لأهْلِكَ عَلَيْكَ حَقا، وإنَّ لضَيْفِكَ عليك حَقا، وإنّ لنَفْسِكَ عليكَ حقًا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وصَلِّ ونَمْ». رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها. وقد كان عثمان ابن مظعون أراد أن يعتزل المجتمع ويضع نفسه فى رهبانية ليست من طبيعة الإسلام.

إن رسالة المسجد توجد الالتحام بين الفرد والمجتمع؛ لهذا كانت الصلاة ـ التى هى المظهرالعملى لذلك ـ دافعة للخدمة الاجتماعية بأجلى صورها، فهى أولا تنهى الإنسان عن فعل الرذيلة، وتحثه على الخُلُق القويم. واسمع معى لقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

فالصلاة تحول بين الإنسان وبين ارتكاب الخطايا وإتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ذلك لأن الصلاة معراج للروح إلى الصلة بالله رب العالمين،

(١) سورة العنكبوت ـ من الآية ٤٥.

وهى تجعل الإنسان فى مراقبة دائمة لله الواحد الأحد ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1].

وفى حديث رسول الله ﷺ وقد سُئل عن الإحسان، فقال: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه فَإنْ لم تكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ». فالإنسان لا يفعل إلا ما يُرضى الله، الذى صلى له وسجد، وخشع قلبه له فى محراب التبتل. والصلاة كذلك تُصَفِّى النفس من الكبر والغرور، فلا يتكبر الفرد على إخوانه ولا يتعالى عليهم؛ لأنه يعلم أن الله لا يحب المتكبرين، وأن الكبرياء للّه وحده، وهو فى صلاته يضع أشرف أعضائه - وهى الجبهة - على الأرض أثناء السجود فى ذلة لله وخشوع.

وقد روى البزار عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قول النبى ﷺ: «يَقُولُ اللهُ سُبحانه: إنّما أتَقَبَّلُ الصَّلاةَ ممَّنْ تَوَاضَعَ بها لعظَمتى، ولم يَسْتَطِلْ بها على خَلْقى، ولم يَبِتْ مُصرا على مَعْصِيَتى، وقَطَعَ النهارَ فى ذِكْرى، ورَحِمَ المسكينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَالأَرْمَلَةَ والمُصَاب» ولقد نَعَى الله على أقوام يتظاهرون بالصلاة وهم لا يفقهونَ العلاقة الاجتماعية التى تربطهم بالناس؛ لذلك تبلَّد شعورهم، ومات فيهم الإحساس بالمسئولية تجاه جيرانهم وأبناء مجتمعهم، فهم يمنعون الأشياء البسيطة عن التداول، ويحجبون خيرهم عن الناس، فمثلهم كمثل السّاهى عن الصلاة التى هى عماد الدين، يقول الله فى بيان هذا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[2].

إن الصلاة لم تُرقّقْ قلوبهم، ولم تفتح للخير صدورهم؛ لهذا توعدهم الله بالويل.

ثم إن الصلاة قوة تمد الإنسان بمدد إلهى، وتعصمه من التردى فى مهاوى الرذيلة والارتماء فى أحضان الشيطان؛ لأن عقيدته قوية، وفؤاده ثابت، وصلته

---

(١) سورة البقرة - من الآية ١١٥.

(٢) سورة الماعون - الآيات من ٤ - ٧.

المجتمع، يبين هذا قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[1].

إن الصلاة ـ وهى شعار المسجد ـ تصقل نفس المؤمن، وترهف حسه، وترقق وجدانه، وتمد المؤمن بقوة روحية نفسية تجعله يواجه مشاكل الحياة ومتاعبها بقلب قوى، وإرادة صلبة، وعزيمة لا تلين، لهذا قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

ويقول فى آية أخرى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[3].

إن المسلم فى الصلاة يفضى إلى ربه بذات نفسه، ويشكو إليه ضعفه، ويغسل عن قلبه ماران عليه من صدأ، وما ارتكبه الإنسان من ذنوب، فهو يدخل فى الصلاة ليغسل فؤاده، ويطهر قلبه، بعد أن غسل ظاهره وتطهر بالماء، فهو فى الصلاة يتطهر نفسيا، فعن أبى هريرة ـ رضى اللّه عنه ـ قال: «سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: أرأيتم لو أنَّ نهرًا بباب أحَدكُم يغتسل فيه كل يومٍ خمسَ مرات، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِه شيء؟ قالوا: لا يبقَى مِنْ دَرَنِه شيء. قال: فذلك مثلُ الصلواتِ الخمس، يمحُو الله بهن الخطايا».

ولابد أن يعرف الإنسان أنَّ الصلاة صِلَة باللّه، فيها كل السعادة الروحية، وهى كذلك صلة بالناس؛ لأنها تجعل نفس المؤمن فياضة بالبر والخير لبنى البشر جميعًا، وهو ما نسميه بالعمل الاجتماعى والمساعدة لأى إنسان، فقد روى الطبرانى عن عمر بن الخطاب، عن رسول اللّه ﷺ قال: «أحَبُّ الأَعْمَال

---

(١) سورة المعارج ـ الآيات من ١٩ ـ ٢٣.

(٢) سورة البقرة ـ الآية ١٥٣.

(٣) سورة البقرة ـ الآيتان: ٤٥ و ٤٦.

إلى الله سرورٌ تُدْخِلُه على مسلم، أو تكشف عنه كُرْبَةً، أو تطرد عنه جوعًا، أو تقضى عنه دَيْنًا». وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: أحب الناس إلى الله أَنْفَعُهَم للنَّاسِ». وفى حديث رواه الترمذى: «كُلّ الْمُسلِم على المسلم حرَامٌ: دمُهُ، وَمَالُهُ، وعِرْضُهُ».

وفى رواية للبخارى «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلمُونَ من لِسَانه وَيَدِه». فهل رأت الإنسانية فى مذاهبها الوضعية أو مِلَلِها وأفكارها مثل تلك الفريضة التى تضىء قلب الإنسان وتمده بشحنة إيمانية وومضات نفسية تدفعه إلى إتقان العمل مع حُسْنِ الخلق ودوام المراقبة لله رب العالمين؟!

إن الفضل ما شهدت به الأعداء.. يقول الكسيس كاريل، وهو طبيب مشهور: «لعل الصلاة هى أعظم طاقة مُوَلِّدَة للنشاط عُرِفَتْ إلى يومنا هذا، وقد رأيت ـ بوصفى طبيبًا ـ كثيرًا من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزًا وتسليمًا تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم. إن الصلاة كمعدن الراديوم، مصدر للإشعاع، ومولد ذاتى للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود حين يخاطبون القوة التى لا يفنى نشاطها.

ولا عجب بعد ذلك أن كانت الصلاة تغرس فى مقيميها الروح الرياضية؛ لأنها تقوى عضلات البدن، والواجب على المسلم أن يكون قويًا فى عقيدته وبدنه؛ لأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. والصلاة أقوال وأفعال فيها الحركة مع اليقظة؛ لأن الغفلة فى الصلاة تُفقد حلاوتها. وكل جوارح الإنسان فى الصلاة تعمل، ومن فِعْل النبى ﷺ فى الصلاة أنه كان يقف فى الصلاة وقْفَةً معتدلة، لذلك رأى عمر بن الخطاب رجلا يتماوت فى صلاته، فقال له: لا تُمِتْ علينا دِينَنَا أماتَكَ الله! ورأى رجلاً يُطَأْطِئ رقبته مُظْهِرًا للخشوع، فقال له: ارفع رأسك؛ فإن الخشوع فى القلوب وليس الخشوع فى الرقاب.

## الصلاة عند الأمم السابقة

وهذه الصلاة كانت معروفة لأهل الديانات السابقة، وكانت مناسبة لعصرهم

ووقت نزول الرسالة عليهم، يقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(١).

ففى الآية بيان أن الأديان السابقة عرفت أركان الإسلام الذى بَشَّرَ به خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، فقد جاء على لسان سيدنا إبراهيم الخليل: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾(٢).

كما مدح القرآن سيدنا إسماعيل لأنه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾(٣).

وفى وصية لقمان لولده يقول له: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٤).

وموسى عليه السلام عند بَدْء مناجاته لربه فى الساعات الأولى للوحى سمع من ربه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(٥).

ويوصيه وهارون فيقول لهما: ﴿أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(٦).

وجاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(٧).

---

(١) سورة الأنبياء ـ الآية ٧٣.
(٢) سورة إبراهيم ـ الآية ٤٠.
(٣) سورة مريم ـ الآية ٥٥.
(٤) سورة لقمان ـ الآية ١٧.
(٥) سورة طه ـ الآية ١٤.
(٦) سورة يونس ـ من الآية ٨٧.
(٧) سورة مريم ـ من الآية ٣١.

ويبدأ الله بها أوصاف المؤمنين، فيقول الحق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وهكذا يختتم الله أوصاف المؤمنين بأنهم يحافظون على الصَّلاة. هذه الصلاة أمرَنَا الله أن نحافظ عليها فى الحضَر والسفر، فى الحرب والسلم، فى الحر والبرد، فيقول الحق سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾[2].

وقد توعد الله بالويل لمن يسهو عن الصلاة، أو يقصر فيها ويهملها حتى يضيع وقتها، فقال الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[3].

وهذه الصلاة هى الشعار الفاصل بين المسلم وغيره، ففى الحديث: «العَهْدُ الذى بيننا وبينَهُم الصَّلَاةُ، فَمنْ تَركَهَا فقد كَفَر». والنصوص على ذلك كثيرة، والأدلة متعددة. ومكانة الصلاة فى الإسلام كمنزلة الرأس من الجسد، فهى عمود الدين، وأول ما يُحاسَب عليها الإنسان يوم القيامة، وهى أول عبادة فُرضت على المسلمين بمكة قبل الهجرة، وفُرضت فى السماء ليلة الإسراء والمعراج بخطاب مباشر من الله إلى حبيبه ومصطفاه، وهذا دليل على سُمو

(١) سورة المؤمنون ـ الآيات من ١ ـ ١١.
(٢) سورة البقرة ـ الآيتان ٢٣٨ ، ٢٣٩.
(٣) سورة الماعون ـ الآيتان ٤ و ٥.

منزلة الصلاة وأهميتها عند الله، وهى كذلك عبادة قديمة، وشعيرة مشتركة بين الديانات السماوية جميعًا.

والصلاة تتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات، فهى تبدأ من أول لحظة يستيقظ فيها الإنسان من نومه وتشيعه إلى مرقده فى آخر النهار، وهى تعود الإنسان على ما يأتى:

## ١ ـ النظافة:

الإسلام هو دين النظافة، حث عليها ودعا إليها ونبه إلى فعلها. فالصلاة التى هى عمود الدين وأساس الإسلام لا يقبلها اللّه إلا إذا تطهر الإنسان لها، يغتسل ويتوضأ، والوضوء مأخوذ من الوَضَاءَة، وهى الحسن والنظافة، والوضوء مشروع بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. وإذا كانت الصلاة مفتاح الجنة فمفتاح الصلاة الوضوء، يقول الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[1].

وفى الحديث عن النبى ﷺ قال: «لا يَقْبَلُ اللهُ صَلاَةَ أحَدِكُم إذا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ»، وهو معلوم للعام والخاص، فمن أنكر مشروعيته كفر. كما أنه ليس من خصائص الأمة المحمدية، وإنما كان معروفًا للأمم السابقة كذلك، ففى الحديث عن النبى ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ واحدَةً فتلكَ وظِيفةُ الوضُوء التى لابُدَّ منْهَا. وَمَنْ تَوَضَّأَ اثْنَيْنِ فله كِفْلاَنِ. ومَنْ توضأ ثلاثًا فذلك وضُوئى ووضُوء الأَنْبياء قَبْلِى».

وقد رَغَّبَ الشارعُ فى الوضوء وبَيَّنَ أن له ثوابًا، ففى الحديث: «مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طُهْر كتبَ الله له به عَشْرَ حَسَنَات». إن الصلاة ـ كما أنها عبادة روحية ـ هى كذلك تَطُّهر وتزين وتجمُّل، واشترط الله لها طهارة الثوب والبدن والمكان؛

---

(١) سورة المائدة ـ من الآية ٦.

ذلك لأن النظافة من الإيمان. يقول الله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

وهذا هو الغسل الظاهرى، وهناك الغسل الباطنى، وهو طهارة القلب من الغلّ والحقد والحسد والكراهية؛ لأن المسلم مطلوب منه أن يزين ظاهره بالطهارة الحسية، ويزين باطنه بطهارة القلب وحُسن الخلق، والبعد عن مساوئ الأخلاق والتحلى بالفضائل؛ لهذا تقول لهم الملائكة عند الوفاة ما حكاه القرآن: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]

وفى آية أخرى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[3].

فالطيب فى الدنيا بالرائحة الكريمة والسمعة الطيبة بين الناس، وصدق الله العظيم: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ﴾[4].

فالظلمات هى المعاصى وسوء الخُلق والتطاول على الناس، والنور هو نور الإيمان، وحلاوة اليقين، وحُسن الخلق، وحب الخير للناس، فيدخل الإنسان فى الصلاة على ضيافة الرحمٰن، ويناجى الأحد الفرد الصمد، وتكون الصلاة قُرَّةَ عين للإنسان يتنعم فيها بذكر الله. ففى الأثر: «يا مَعْشَرَ أوليائى، تَنَعَّمُوا

(١) سورة المائدة ـ من الآية ٦.
(٢) سورة النحل ـ الآية ٣٢.
(٣) سورة الزُمَر ـ الآية ٧٣.
(٤) سورة الحديد ـ من الآية ٩

بِذِكْرِى» لهذا أثنى الله على أهل المسجد النبوى لحرصهم على النظافة والتطهر والتزين، فقال: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[1].

وفى الحديث: «تَنَظَّفُوا فَإِنَّ الإِسْلاَمَ نَظِيفٌ». وفى حديث آخر: «إِنَّ الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيْبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ». وفى القرآن الكريم: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[2]. والنظافة هى الوضاءه والجمال الظاهرى والمعنوى.

فالمسلم يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة طيب الرائحة، حسن الملبس، متجنبًا لكل ما يؤذى إخوانه. وفى الحديث: «مَنْ أَكَلَ البصلَ والثومَ فلا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا هَذَا، فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ تَتَأَذَّى مما يتأَذَّى منه بَنُو آدَم».

ومن المعلوم أن هذه الأشياء مباح أكلها، لكن نظرًا لرائحتها التى تخرج من فم آكلها جاء النهى عن أكلها عند حضور الجماعة فى المساجد.

وفى زماننا هذا يُقاس على ذلك أصحاب المهن الملوثة ملابسهم بأشياء تؤذى الآخرين، وكذلك من يلبسون الجورب «الشراب» الذى له رائحة كريهة فى أقدامهم، فعليهم أن يغيروا ويخلعوا تلك الأشياء حتى لا يتسببوا فى إيذاء الآخرين بالروائح الكريهة أو الثياب المستقذرة. وكذلك تطهير الفم وغسله بالسواك؛ لأنه كما جاء فى الحديث النبوى: «السّواكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ». وعلى الذين يشربون «التمباك» ـ الدخان ـ غسل أسنانهم وإزالة الرائحة التى تظهر من فمهم؛ لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم. وفى الحديث: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ على أُمَّتِى لأَمَرْتُهُم بِالسّواكِ عندَ كُلِّ صَلاَةٍ» وقد أمر الرسول ﷺ بطهارة الأجساد، فقال: «طَهِّرُوا هَذِهِ الأَجْسَادَ طَهَّرَكُم الله».

وإذا كان الطب الوقائى فى مجتمعنا اليوم يُدرس فى الجامعات فإن الإسلام

(١) سورة التوبة ـ من الآية ١٠٨.

(٢) سورة الأعراف ـ من الآية ٣١.

حَثَّ عليه وطَبَّقَهُ عمليًا فى منهجه اليومى عند أداء الصلاة، والوقاية خير من العلاج، والإسلام رَبَّى أتباعه على النظافة؛ ليتكامل المؤمن فى شخصيته وإنسانيته ووعيه وإدراكه للمهمة الملقاة عليه، والغاية التى يسعى إليها؛ ذلك لأن العقل السليم فى الجسم السليم.

ولقد كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يتجملون ويتزينون ويلبسون أحسن ما عندهم من الثياب، ويقولون معللين: إنَّ الله جَمِيلٌ يُحب الجمال، وإذا تزين المسلم وتجمَّل وذهب إلى المسجد لأداء الصلاة ـ التى هى مناجاة لله وصلة بربه ومعراج إليه ـ وأقبل على الله، فإنه ـ سبحانه ـ يُقبل على العبد ويهش لِمَقْدَمه، ويتبششُ له،[1] ويباهى به ملائكته. والصلاة بتلك الطريقة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

لقد كان النبى ﷺ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ أو اشتد به كَرْبٌ، أو نزلت به ضائقةٌ، نادى على بِلال فقال له: «أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ». ولم يقل: أَرِحْنَا منها، بل قال: أرحنا بها؛ لأنها راحة للمؤمن، فيها يُفْضِى المؤمن إلى ربه بذات نفسه، ويشكو إليه همه، ويستفتح بها أبواب رحمة اللّه؛ ولذا قال الرسول ﷺ: «إنَّ لله مَلَكًا يُنَادِى عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ: يا بَنِى آدَمَ، قُومُوا إلى نِيرَانِكُم التى أَوْقَدْتُمُوهَا فأطفئوها». إنَّهَا نارُ الحقد الذى يشتعل فى القلب، فيأتى الصلاة لتكون كمضخة الإطفاء التى تطفئ النار وتمسح دخانها، وتغسل أثر الدخان الأسود من على قلبه.

إنَّ اللحظات الطيبة المباركة التى يقف فيها الإنسان أمام ربه فى اليوم خمس مرات تُكَفِّر خطاياه، وتزيل السيئات، وتنزع من قلب الإنسان الأحقاد. ولقد صور الرسول ﷺ ذلك بوسائل عملية توضيحية، ففى رواية عن سلمان الفارسى: أنه كان مع النبى ﷺ تحت شجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا فَهَزَّهُ حتى تحاتَّ وَرَقُهُ[2]، ثم قال: «يا سَلْمَانُ ألا تسألنى لِمَ أفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: ولِمَ تَفْعَله؟

(١) يتبشش له: يبتسم له ويلقاه لقاءً جميلاً.
(٢) تحاتَّ ورقه: تناثر وتساقط.

قال: إنَّ المسلمَ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوضُوءَ ثم صَلَّى الصَّلَوات الخمس تحاتَتْ خَطايَاهُ كما تحاتّ هذا الورق»، ثم تلا الآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[1].

**٢ ـ النظام:**

إن المسجد ـ وشعاره الصلاة ـ دار عطاء، يلقن العلم، ويوجه للعمل، وصدق الله العظيم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2].

فالمسجد يُغَذِّى الروح، ويُهذِّب البدن، ويعنى بالتربية وسُمُوِّ الروح. فالصلاة حركة وعمل وفهم، فاللسان يعمل قارئًا، يسبح بحمد الله ويشكر على ما أنعم. والجسم يتحرك قائمًا راكعًا ساجدًا، والعقل يعملُ متدبرًا يفكر فيما يتلو من قرآن، والقلب فى كل ذلك حاضر يستعر خشية الله، وفى ذلك تربية للضمير الذى هو أقوى سُلطة على الإنسان، وكل ذلك يعلم الإنسان النظام، فهناك ضبط الوقت المحدد، وتلك الصفوف المتراصة المتلاصقة المستقيمة لاعوجَ فيها ولا اختلاف بين أفراد الصف، وصوت الإمام يُدَوِّى فى كل صلاة: ساوُوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة؛ إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج، وقد فهموا هذا من قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[3]

الصفوف مستقيمة، القدم إلى القدم، وصوت نبيهم يرن فى آذانهم: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم».

---

(١) سورة هود ـ الآية ١١٤.

(٢) سورة القصص ـ الآية ٧٧.

(٣) سورة الصف ـ الآية ٤.

### ٣ ـ المساواة:

إن أهم مظهر يتجلى فى المسجد أثناء الصلاة هذه الصفوف المتراصة فى إخَاء تام ومحبة، الناس فيه سواسية كأسنان المشط، فليس فى المسجد مكان للوزراء، وأخر للأمراء، وثالث للخفراء، كلا، بل الصف الأول لمن حضر سابقًا، تجد الغنى بجوار الفقير، والخادم أمام المخدوم، والعالم المؤهل بأعلى الموهلات وفى أرقى المناصب قد يتقدم عليه عامل أو فلاح بلاغضاضة أو عدم ارتياح، وإنما الكل فى جو روحانى طاهر، فيه الصفاء والمحبة والإحساس بالرضا... فى بدء الدعوة أراد الأغنياء أن يجعلوا لأنفسهم يومًا يلتقون فيه برسول الله ﷺ وللفقراء يوما آخر حتى لا يجتمع هؤلاء مع هؤلاء، فلا بد أن تحفظ الكرامة ـ على زعمهم ـ إلا أن السماء رفضت هذا الطلب، ونزل الوحى على الحبيب المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[2].

لقد جعل الإسلام من الحقوق الطبيعية لأى إنسان أن يتبوأ بدينه وخُلُقه أعلى المراتب، ونسب الإنسان بالله فى عمله، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نَسَبُه. إن الصف الأول لمن حضر مبكرًا حتى ولو كان أسود اللون، فليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى، ولعلنا نلحظ هذا من أن الوزير الأول للإعلام فى

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٥٢.

(٢) سورة الكهف ـ الآية ٢٨ و صدر الآية: ٢٩.

الدولة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ، كان بلال بن رباح الحبشى. لقد حَطَّمَ الإسلام الفوارق الزائفة من أول يوم لقيام الدعوة الإسلامية، وتَأَمَّلْ فى خيرةِ الصحابة والصفوة الأولى من المؤمنين - وهم: بلال الحبشى، وأبو بكر العربى، وسَلْمان الفارسى، وصُهَيْبٌ الرُّومِىّ - تجد أَنَّ من حق العبد الأسود وهو فى خدمة سيِّده مالسيِّده تماما من الحقوق الدينية، يُصاحِبُ القائدَ، ويُجالس الرئيسَ، ويناقش فى أمور الدين. ولقد هبَّتْ نسمة الجاهلية يومًا فى لفظ صَدَرَ مِنْ أبى ذَر وهو فى ثورة غضب مع بلال، فقال أبو ذَر لبلال: يَابْنَ السَّوْدَاء، وسمعها الرسول ﷺ، فقال لأبى ذر: «إِنَّكَ امرؤٌ فيكَ جَاهِلِيَّةٌ، دَعْهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَة» ثم يقول ﷺ «إِنَّ الله أَذْهَبَ عنْكُم نخْوَةَ الجاهِلِيَّةِ وتَعَظُّمها بالآباءِ، كُلُّكُمْ لآدَمَ وآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم».

ومما قيل:

لا تَقُلْ أَصْلِى وفَصْلِى أبدًا  إِنَّما أَصْلُ الفَتَى ما قَدْ حَصَل

ويقول عمر بن الخطاب - رضى اللّه عنه -: «لو جَاءَت الأعاجِمُ بالأعمال وجِئْنا بلا عمل لكانُوا أحقَّ بمحمدٍ منا يوم القيامة. وفى الأثر «الجنة لمن عَبَدَنِى وَلَوْ كَانَ عَبْدا حَبَشِيًا، وَالنَّارُ لمن عصانى ولو كَانَ شَرِيفًا قُرَشِيا».

فالمسجد يعلم الناسَ عمليًا هذا الوعى الاجتماعى الرائع الرائد؛ ليتحقق الخير فى المجتمع، والكل ينطلق لأداء واجبه بهدوء واستقرار. إننا اليوم نرى - وفى أرقى الدول - التفرقة العنصرية على أشدها، حتى فى مراحل التعليم أو فى ركوب الأتوبيس أو المطاعم، ثم يقولون.إنهم فى حضارة، أين هذا من منهج الإسلام ونظامه الذى يسوى بين الناس، وشعاره الذى يتردد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؟[1].

إن على الإنسانية اليوم أن تتجه إلى الإسلام ومَعِينه الصافى، وتعاليمه

(١) سورة الحجرات - من الآية ١٣.

السمحة؛ لتسعد البشرية وتطمئن النفوس. إن المسجد قائم فى الأرض؛ ليصحح مَسار الركب، ويمنح البشرية زادها وتقواها. إن بيوت اللّه فى أرضه المساجد، يدخل الداخلُ إليها فلا يُرَدُّ ولا يُمْنَعُ، اللهم إلا إن حجب نفسه هو بقلبه عن اللّه، وانصرف عن رب البيت.

إن المسجد دار ضيافة، مَنْ دَخَلها بصفاء قلب وطهارة جسد أعطاهُ الله أعَزَّ عَطاء، وأجزلَ الثواب، بقصده وإقباله وطهارته، وأكْرَمَ جَزَاء. ففى الحديث: «إنَّ بُيُوتِي فى الأرض المسَاجد، وإنَّ زُوَّارِى فيها عُمَّارها، فَطُوبَى لِمَنْ تَطَهَّرَ فى بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِى فى بَيْتِى، وحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ».

إذا كانت هناك تصرفات سيئة لبعض المترددين على المساجد فليس هذا ذنبَ الإسلام ولا عيبًا فيه، كلا، ولكن الناس أسَاءُوا استعماله ولم يفهموا تعاليمه.

علينا أن نصحح المسار ونخلص النية بحسن القصد؛ لأن الصلاة دين، والعمل دين، والتعاون بين الناس دين، والصدق فى الكلام دين، والوفاء بالعهد دين، والأمانة دين، والعفة دين، وحب الخير للناس دين، والمحافظة على المال العام والخاص دين، وبناء الأسرة وتربية الأولاد والصوم والزكاة والحج دين، لا يمكنك أن تفصل بين الأشياء أبدًا وتقول: هذا دين وهذه دنيا، كلا، فالدين للحياة كلها، يعمل على إسعاد الفرد وراحته، ورضا الأمة وتقدمها، والانسجام التام بين الفرد والجماعة، ونرد على من يريد أن يفرق بين خلق وخلق بقول الحق: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

إن الحياة عندما انفصلت عن المسجد وعطائه كانت عذابًا وجحيمًا، إذ تبلَّدت القيم، وانهارت الأخلاق. إن الصلاة بين تاركها ومقيمها مظلومة؛ لأنها

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية: ٨٥.

خُلقت للحياة، متعاونة مع كافة القيم الكريمة التى تخدم الدنيا بأسرها، فهى مع الأطفال تنمى فيهم المبادئ الأخلاقية الفاضلة، ومع الشباب تثير فيهم قوة العزم، وتعظم نزعة الفكر، وتحفظ شعلة اليقين. إنها عندما يؤديها الإنسان فى المسجد تُنْبِئُ عن المريض فَيُزَارُ، وعن الفقير فَيُسَاعَدُ. إنها فى البيت مشعل نور، وللأسرة زاد طهور، وفى المجتمع غنى للنفس، ومساواة بين الجميع.

**٤ - الطاعة:**

المسجد والصلاة فيه فى جماعة لها ثواب عظيم، وأجر جزيل، والصلاة فى جماعة ثوابها يفوقُ ثواب صلاة الفرد بمفرده بسبع وعشرين درجة، كما جاء فى حديثٍ متفق عليه. والإسلام يعمل على تنمية روح الجماعة والألفة فى نفس الفرد. فإذا صلى الإنسان منفردًا لسبب من الأسباب فهى صلاة صحيحة مقبولة، لكنها تقل فى الثواب عن الصلاة فى جماعة بسبع وعشرين درجة. والدعوة إلى الصلاة تتم بنشيد إسلامى رائع، هو لكل المسلمين أينما كانوا، تنطلق به أصوات المؤذنين: «الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن لا ألـه إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. حَيَّ على الصَّلاة. حيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح. حى على الفلاح. الله أكبر. الله أكبر. لا إلـه إلا الله». وفى الفجر يُزَاد: «الصَّلاةُ خَيْرٌ من النوم. الصلاة خير من النوم». بعد «حَيَّ على لفلاح» الأخيرة.

ويسمع المسلمون هذا النداء، فيلبون على الفور ويتركون عملهم، ويهرعون إلى المساجد ينتظمون فى صفوف متراصة، وإخوَّة كريمة، ومحبة غامرة، يأتمون بإمام واحد، إذا كبَّرَ كَبَّرُوا من خلفه، وإذا قرأ أَنْصتُوا، لا يسبقونه بركوع أو سجود؛ لأن حديث رسول الله ﷺ هم له واعون: «ألاَ يَخْشَى إذا رَكَعَ أَحَدُكُم أو سَجَدَ قَبْلَ الإمام أَنْ يَمْسخَ الله رأْسَهُ رَأْسَ حمَارٍ». ويوم الجمعة الذى هو يوم الزينة، والعيد الأسبوعى للمسلمين، يتجمَّلُ فيه الإنسان ويتطيَّبُ ويتسوَّكُ، ويذهب مبكرًا إلى المسجد، ويسمع للخطيب فى خشوع وإنصات؛ لأن منْ قال

لصَاحِبِه يوم الجمعة والإمام يخطبُ: أَنْصتْ، فَقَدْ لَغَا، ومَنْ لغَا فلا جُمعة له. إن هذا تدريب عملى على الطاعة؛ لأن من توجيهات الإسلام على لسان صاحب الدعوة الأول: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّىَ علَيْكُم عَبْدٌ حبشِىٌّ كأَنَّ رَأْسَهُ رَأْسُ زبيبة».

ولقد هم الرسول ﷺ أن يُحَرِّقَ على قوم بُيُوتَهُم؛ لأنهم يتخلفون عن الجماعات، ولما كان المسجد هو عنوان المسلمين فإنهم يجتمعون فيه، ويتدربون على هذا اللون الجماعى الذى يرقى بالأمة ويسمو بها، ويضعها فى مصاف الأمم، ومكان الصدارة منها؛ لأنهم بهذا الأداء يتعارفون ويتعاونون على حل مشاكلهم بروح الحب والتفاهم المبنى على النقاء والطهر والصفاء. وابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أنّ يَلْقَى الله غدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ على هؤلاء الصَّلوات حيث يُنادى بهنَّ، فإن الله شَرَعَ لنبيكم ﷺ سُنَّةَ الهدى، وإنهن مِنْ سُنة الهدى، وإنكم لو صَلّيْتُم فى بُيوتِكُم كما يُصَلِّى هذا المتخلِّفُ فى بيته لَتَرَكْتُم سُنّةَ نبيِّكم، ولو تركتُم سُنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فَيُحْسِنُ الطهورَ، ثم يعمد إلى المسجد من هذه المساجِد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحطُّ عنه سيئة. ولقد رأينا وما يتخلف عنها ـ أى صلاة الجماعة ـ إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤْتَى به يتَهادَى بين الرجلين يُسْنِدَانِه لمرضه حتى يُقَامَ فى الصف.

الله أكبر. إن هذا اللقاء يُقوِّى روح الجماعة ويشد أَزْرَها، ويدفع بها إلى زيادة الإنتاج فى كل مناحى الحياة. والإمام الذى يصلى ويخطب ليس دكتاتورا يفرض رأيه على الناس أو يخطئ فلا يُقَوَّمُ، كلا، إن الإمام إذا أخطأ فى قول أو فعل فعَلَى المصلين من خلفه أن يُصححوا له خَطَأَهُ ويردوه إلى الصواب، وينبهوه إذا غفل، ويُذَكِّرُوهُ إذا نسى، ويعود هو إلى الحق. إن المسلمين الذين يناجون ربًا واحدًا، ويتلون كتابًا واحدًا، ويتجهون إلى قبلة واحدة، ويقفون خلف إمام واحد، وأعمالهم واحدة ـ من قيام أو قعود، ولا يسلمون حتى يسلم

الإمام، الذى تتوافر فيه صفات اليقظة والقدرة على الاستيعاب ـ وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾[1].

وفى قول الحق: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾[2].

إن المسلمين الذين يجتمعون فى المسجد يوميًا خمس مرات، ثم يجتمعون مرة كل أسبوع فى يوم الجمعة الذى يقول الله فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3].

يتعلمون ما يسعدهم وينفعهم. فعلى المسلمين أن يطيعوا ربهم ويتركوا البيع والشراء يوم الجمعة، ويذهبوا إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة الجامعة التى لم يبح الرسول ﷺ التخلف عنها إلا لعذر قاهر، ففى الحديث: «مَنْ تَرَكَ ثَلاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِها طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِه». وفى حديث آخر: «لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ عَنْ وَدْعِهِمْ ـ أى تركِهِم ـ الجمَاعَات، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ».

يجتمع المسلمون فى هذا اليوم الذى يكون منطلقًا لإظهار قوة المسلمين، ويسمعون إلى الخطيب يُذَكِّرُهُمْ باللّه، وآياته، وملائكته، وأنبيائه، ويوم القيامة وأهواله، فترق قلوبهم، ويزداد العطف بينهم، وتوجد روح الأخوة والإيثار فى نفوسهم، ثم يأتى العيد وصلاته جامعة؛ لأنها أشبه بمؤتمر كبير جامع لكل فئات الحى وأجناس المجتمع، ويُصَلَّى العيد فى الخلاء. عن أم عطية ـ رضى

(١) سورة التوبة ـ من الآية ٧١.
(٢) سورة النساء ـ من الآية ٥٩.
(٣) سورة الجمعة ـ الآية ٩.

اللّه عنها قالت: أَمَرنَا رسولُ الله ﷺ أن نخرجَ فى الفطْرِ والأَضْحَى: العَوائق، والْحُيَّض، وذوات الخدور: فأما الحيض فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلاَةَ وَيَشْهَدْنَ الخيرَ، ودعوة المسلمين. قُلْتُ: يا رَسُولَ الله، إحْدَانَا لا يَكُونُ لها جِلْبَابٌ. قال: لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جلْبَابها! أرأيت روح التضامن وهى تسرى فى هذه التعليمات التى توجه إلى الطاعة؟ إنَّ الواجب على المسلم أن يكون هينًا لينًا، يُحِبُّ لله ويُبغض لله، ويطيع الله ورسوله حتى ولو خالف هواه، يقول القرآن: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وفى الآية الأخرى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ ﴾[2].

**• ـ العلم:**

المسجد دار عطاء يلقن العلم الذى يُهذب النفس، ويصقل الروح، ويرقق الوجدان؛ لأن العِلْمَ مَنْ سِمَاته أن يرتقى بالفكر الإنسانى، وليس من دين كَرَّمَ العِلْمَ ودعا إليه مثلما فعل الإسلام، ومعجزته الخالدة الباقية هى القرآن، كتاب العقل والوجدان، هذا الكتاب لم يطلب منك أن تغلق فكرك وتصم أذنك ـ لا ـ إنه دعاك إلى التأمل فى نفسك: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3].

وإلى النظر فى الكون: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾[4].

إن حرية الفكر، ونزاهة التقدير، وسماحة التقبل، خصائص يتميز بها الإسلام من أى دين آخر، قال تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ ﴾[5]

---

(١) سورة النور ـ الآية ٥١.
(٢) سورة النور ـ من الآية ٥٤.
(٣) سورة الذاريات ـ الآية ٢١.
(٤) سورة يونس ـ من الآية ١٠١.
(٥) سورة الكهف ـ من الآية ٢٩.

إن الإسلام يطلب الإيمان بالله عن طريق التأمل والفكر، وإقامة الدليل العقلى، واستعمال القياس الصحيح؛ ليصل من وراء ذلك كله إلى أن للكون رَبا صانعًا، عالـمًا قديرًا، وهو يلفت نظرنا إلى مافى الكون من آيات مبثوثة تعود على الإنسانية بالمنفعة، إن نحن أحْسَنَّا التأمل فى أمرها ومعرفة قانونها، وربط أسبابها بمسبباتها، يقول الشاعر:

يا صَاحِبَىَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وَجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

ويقول الآخر:

وفى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

واقرأ معى قول الحق، وهو أصدق القائلين: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(٢).

وكذلك قوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾(٣).

وأيضًا قوله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٤).

إن الحضارة التى تعيش الإنسانية اليوم فى ظلها وتحيا فى رحابها ليست عمل جيل من الأجيال، بل هى عمل الإنسانية منذ هبط آدم من الجنة إلى اليوم، وسيظل ذلك إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها. إن الإنسانية فى بناء

(١) سورة الروم ـ من الآية ٢٢.
(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١٩٠.
(٣) سورة الأعراف ـ من الآية ١٨٥.
(٤) سورة فصلت ـ من الآية ٥٣.

حضارتها تنزع إلى الماضى، فتعترف بجهد السابقين، وتمضى إلى المستقبل حاملة عبرة الماضى؛ لتصون بذلك جهاد اللاحقين، ويتم ذلك بما تقدمه من نتاج العقل البشرى الذى يكشف حقائق الكون مع ضمانة النتائج العقلية، والله سبحانه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] هذا، والحق سبحانه يقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2].

لهذا نرى الإسلام حَثَّ على العلم والتزود به؛ ليكون للمسلم حظ ممكن من الدنيا.

إن الإنسان المسلم لابد أن تحكمه غاية، والإنسان العظيم غايته عظيمة؛ لأن العظائم كُفْؤُهَا العُظَمَاءُ، إذَنْ فالحكمة ضَالَّتُه، ينشدها ويبحث عنها، وهو يردد: لا بَارَكَ الله لى فى يوم لا أزداد فيه علمًا، وهو يعى تلك الحكمة: «مَنِ استَوى يَوْمَاهُ فهو مَغْبُونٌ، ومَنْ كَانَ يَوْمُهُ شرًا مِنْ أَمْسِه فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ خيرًا منْ أَمْسه فَهُوَ المؤْمنُ». وهو يعنى قول الحق: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

والعلم غاية الإنسان العاقل؛ لقول الله سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[4].

وغاية العلم السمو بالإنسان وإبراز خصائصه، فالعلم نور، وعلى ضوء النور يستطيع الإنسان أن يرى الأشياء على طبيعتها. وإذا كان الجهل ظلامًا فإن الإنسان فى الظلام يتخبط.

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية ٢٦٩.

(٢) سورة المجادلة ـ من الآية ١١.

(٣) سورة العنكبوت ـ الآية ٢٠.

(٤) سورة الأنعام ـ من الآية ١٢٢.

وعلى العاقل أن يبتعد عن المعاصى التى تُغضب الله؛ لأن المعاصى حجاب يمنع وُصول النور إلى القلب، الذى هو محل التَّلَقِّى من وحى الله؛ وإلهامه، لأنه الغذاء الأساسى للقلب، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

ورسول اللّه ﷺ يقول: «أَلاَ وَإِنَّ فى الجسَد مُضْغَة إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كُلُّه وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كُله، ألاَ وَهِىَ القَلْبُ».

لذلك يجب علينا أن نبتعد عن المعاصى؛ لأنها غِلاف يغلف القلب ويطمس الحقيقة، فلا يهتدى الإنسان إلى الخير؛ لأنه لا يعلم بقول الحق سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

ويقول الإمام الشافعى مبينًا هذا المعنى:

شَكَوْتُ إلى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِى ... فَأَرْشَدَنِى إلى تَرْكِ المعَاصِى

وَأَخْبَرَنِى بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لا يُهْدَى لِعَاصِى

إن العلم هو ميراث الإنسانية كلها، ونظرة الإسلام إليه تتميز بأنها نظرةٌ إلى الإنسان مِنْ كُلِّ جوانبه، وأَخْذٌ بيده إلى ساحة الحياة وسعة الكون، مع وضع صمام الأمن فى كل شىء، وجَعْل الطريق ممهدًا للسير الآمن، وأَخْذ العبرة من الأحداث التى مرت بالبشرية: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

إن الفيلسوف جوستان لوبون يقول: إن العرب هم أَوَّلُ مَنْ عَلَّمَ العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

---

(١) سورة الحج ـ من الآية ٤٦.

(٢) سورة الزمر ـ من الآية ٩.

(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٣٧.

ولقد كان المسجد ـ ولا يزال ـ هو بَدْء انطلاق الحركة العلمية، فهو ساحة عبادة، يُهرع إليه الراكعون الساجدون، وهو معهد وجامعة، وهو مصحف وكتاب؛ لأن فيه طبيعة الإسلام الجامعة. دين الحياة ـ وإذا كان العلم قضية الإيمان فإن فيه راحة الإنسان، والإيمان يخدم قضية السلام بين بنى الإنسان، ويضبط سلوكه؛ لأن من وراء ذلك رضا الرحمٰن، فالمسجد ـ إِذَنْ ـ هو دار عبادة، ومدرسة تعليم فتحت صدرها للعلوم ـ ولم يقف هيابًا أمام أى لون من العلوم أو المعارف، ففى رحاب المسجد دَرَجَ العِلْمُ. وعلى حصير المسجد انبثقت ثورات فكرية ودينية وعلمية غيرت ملامح التفكير البشرى وشكلت اتجاهاته، ومن فوق منبره كم دوت صيحات نفذت بعمقها إلى جميع الأفكار.

إن المسجد لم يكن مكان ترهب أو انعزال عن رَكْب الحياة، أو دعا إلى العكوف على دراسة لون معين من ألوان الفكر ثم طلب إلى أتباعه أن يغلقوا فكرهم عن بقية العلوم، كلا، فالحقيقة التاريخية تؤكد أن المسجد اتسعت رحابه لدراسة كل فكر؛ لأن ذلك يتواءم مع طبيعة الإسلام، وحياة الداعى الأول سيدنا محمد ﷺ الذى بُعِثَ فى بيئة أمية، ماذا كان موقفه؟ كان يجادل بالحجة، ويفحم بالمنطق والدليل. لقد كان بحق أستاذًا عظيمًا ومعلمًا هاديًا، يهدى بالحكمة، ويفتح مغالق النفس، ومع هذا كان ينهى عن الجدل العقيم؛ لأن وحى السماء يقول له: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1]

وهو بوصفه معلما يهدى للتى هى أحسن، يقول: «أنا ضامنُ بيتٍ فى الْجَنَّة لِمَنْ تَرَكَ الْجِدَالَ وَهُوَ مُحِقٌّ».

ومَعَ ذَلِكَ لم يكن عِلم المعلم الأول ناضِبًا بلا عمل، أو أنه يرسل الكلام بلا تخطيط، أو يرفع شعارات فقط، لا، لأن وحى السماء يقول له: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[2].

(١) سورة العنكبوت ـ من الآية ٤٦.
(٢) سورة الصف ـ الآية ٣.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

وهو صلوات الله وسلامه عليه يقول لفاطمة بنته وأَحب الناس اليه: «يا فَاطِمَةَ بنت محمد، اعْمَلِى فلن أُغْنِىَ عَنْكِ مِنَ اللهِ شيئًا، يا عَبَّاسُ عم النبى، اعْمَلْ فلن أُغْنِىَ عَنْكَ من الله شيئًا، لا يَأْتِبنِي الناسُ بِأعْمالِهم وتَأْتُونِى بِأحْسَابِكُم».

ويقول الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وَتَأْتِىَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ ـ إِذَا فَعَلْتَ ـ عَظِيمُ

ومن الطرائف ما يقوله القائل للعلماء الذين يقولون ولا يعملون:

يا عُلَمَا الأُمَّةِ يا مِلْحَ البَلَدْ مَنْ يُصْلِحُ المِلْحَ إذا الملحُ فَسَدْ

لهذا كان عمله مطابقًا لما يأمر به، وكان هو الأخلاق العظيمة مجسدة يمشى بين الناس.

لقد خرج ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين، أحدهما يدعون اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ويرغبون إليه، والثانى يُعَلِّمُونَ النَّاسَ، فقال: «أَمَّا هؤلاء فيسألون الله تعالى، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيُعَلِّمُونَ الناسَ، وإنما بُعِثْتُ مُعَلِّمًا».

وكتب أبو بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ إلى أحد وُلاته: ـ «عليكَ بالعِلْم فإنك إن افتقرت كان لَكَ مالاً، وإن استغنيتَ كان لك جمالا». ويقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: «يأيها الناسُ، عليكم بالعِلْم، فإن لله عز وجل رداءً يحبه، فمن طلب بابا من العلم رَدَّاهُ[2] اللهُ عَزَّ وجل بِرِدَائِه»، وقال

(١) سورة االبقرة ـ من الآية ٤٤.
(٢) رَدَّاه: أَلْبَسَهُ الرِّدَاءَ.

على بن ابى طالب لكُمَيْل: «يا كُمَيْلُ، العلمُ خير من المال، العلمُ يحرسُكَ وأنت تحرسُ المالَ، العلم حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، المال تُنقصه الصَّدَقَةُ والعِلْم يزكو بالإنفاق».

ويقول أبو الأسود الدُّؤلى: «ليس شيء أعَزَّ من العلم. الملوكُ حُكَّامٌ على الناس، والعلماء حُكَّامٌ على الملوك». ومن وصايا لقمان لولده: «يا بُنَىَّ، جَالِسِ العُلَماءَ وزَاحِمهُمْ بركبتيك، فإن الله ـ سبحانه ـ يُحيى القلوب بنور الحكمة كما يُحيى الأرض بوابل السماء، وكفى بفضل العلم شرفًا هذه النصوص التى ساقها الأئمة العظماء الذين فقهوا الإسلام، وكفى فخرًا شهادة السماء، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1] وكذلك قول الحق: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[2].

فبدأ الحق بنفسه، وثَنَّى بالملائكة، وَثَّلثَ بأهل العلم، ونَاهِيكَ بهذا شرفًا وفضلا وجلاء.

وللإمام على كرم الله وجهه:

ما الفَخْرُ إلاَّ لأَهْلِ العِلْمِ إنَّهُمُ ... عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلاءُ
وقَدْرُ كُلِّ امْرِىءٍ ما كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ لأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيا بِهِ أَبدًا ... النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ

إن العلم مفجر لطاقات الوجود، وهو فى الإسلام يلتزم بشرف الحركة، وسمو الاتجاه، ويوجه طاقات الفرد إلى تطوير الحياة وإضاءة جوانبها بمشاعل الحب والأدب والخلق، واقامة العدل دون تمييز أو تفرقة بين صديق وعدو، وإذا كان المسلمون قد انصرفوا عن هذا المنهل العذب، من المعهد الرائد ومكانه المسجد، وصرفوا أنظارهم عن خصائص الإسلام وأصالته فى حرية البحث

(١) سورة فاطر من الآية: ٢٨..
(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ١٨.

وأسس العلم، وحولوا أبصارهم تجاه تلك المدنيات وبريقها الزائف، وفُتِنَ البُلَهَاءُ بما لوَّح به القومُ من حضارة مادية قطعت صلتها بالروح، فإننا نقول: إن العلم الذى دعا إليه الإسلام باسم الله، غايته الحق وسعادة الإنسانية، والارتقاء بها، والدفع لها فى مضمار التقدم؛ لذلك كانت الآيات الأولى التى نزلت من السماء: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

إن الإنسانية عندما قطعت صلتها بالله واتجهت بعلمها إلى العلو والغطرسة وسلب حقوق الناس تحولت حياتهم إلى جحيم وشقاء، وجَفَّتْ حياتُهم، ونَضَبَ مَعِينُ الروح. إن القوم مخدوعون ببريق مادتهم التى تعود عليهم تدميرًا وهلاكًا، ولعلنا نذكر ما فعلته القنبلة الذرية فى «هيروشيما» وبلاد أخرى وكذلك النابالم، ثم هذا الرصاص القاتل. إن الفرق شاسع بين علم الإسلام الذى يرقق الطبع، ويهذب النفس، وينمى عواطف الرحمة والإخاء والإيثار، ويضع لذلك الثواب والعقاب، ويأمرك بالأخلاق جملة واحدة لا تتجزأ: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[2].

وبين علم الإنسان الذى هبط به إلى طينته فَحُجِبَ بسبب ذلك عن علم الروح، فعاش فى خوف لا يعرف له أمْنًا، وفى حرب لا يعرف له سلمًا؛ لأن علمه فقد خصائص الروح التى هى من أمر الله.

عَلَى عقلاء البشرية أن يدرسوا العلم الذى نبع من المسجد، ومنهاجه واضح... إننا نصيح بهم: ادرسوا هذا الدين العظيم؛ لتعرفوا أن التنكُّرَ له خسران للإنسانية، وتعريض لأمنها وسلامها للخطر. إن كل مؤمن بالله يَيْئَسُ قلبه لجهل الجاهلين، ويَوَدُّ لو يقودهم إلى معرفة العلم الذى يُشيع الخير فى

---

(١) سورة العَلَق ـ الآيات من ١ ـ ٥.

(٢) سورة النمل ـ من الآية ٨٨.

أنحاء الأرض. . . والإسلام حرب على الجهل؛ لهذا نجد مشروع محو الأمية بدأ فى صدر الإسلام بتوجيه من رسول الله ﷺ عندما وقع المشركون أسرى فى غزوة بدر، وكان لابد لكل أسير من دفع الفدية كى يتحرر: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1].

وكان بعض المشركين يعرفون القراءة والكتابة، فوضع الرسول ﷺ أُسس هذا المشروع، وهو أن كل رجل متعلم أسير يُعَلِّمُ عشرة من المسلمين الأوائلَ، ويكون هذا فداءً له، ويُفَكُّ من الأسر. وتم هذا فعلاً فى المسجد النبوى الذى كان بحق جامعة شعبية اتسعت رحابه فى الليل والنهار لطلاب العلم، وعُشَّاق المعرفة، صيفًا وشتاء، لا يتقيد بسن، ولا يشترط أى رسم للالتحاق به، ولا تأمين لحصيرة، ولا يضع أى قيد أمام أى طالب، ولا يشترط الحصول على أى شهادة، اللهم إلاَّ الاعتراف بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد نبيا ورسولا.

فالمسجد ما هو إلا جامعة شعبية تعلم جميع العلوم والمعارف، من اقتصاد، وسياسة، وزراعة، وطب، وتجارة. . . الخ، ولابد لطُلاَّب تلك المعارف أن يتعلموا أولاً أصول العقيدة؛ لأنها السلاح الذى يمد الإنسان بالقوة، ويعصمه عن التردى فى مهاوى الرذيلة. والعبادات، لابد أن يُلِمَّ المسلم بشروط صحتها، وسبب بطلانها، وما يجب على الإنسان أثناء التلبس بتلك العبادات. وأهمها الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. ثم لابد أن يتعلم الفرد مكارم الأخلاق، ومعاملة الجيران والأصدقاء والأهل، وما شاكل ذلك.

وإذا كانت أمتنا اليوم تتجه لإنشاء العديد من الجامعات الإقليمية؛ ليكون هناك استيعاب للأعداد الكثيرة المتزايدة من أبنائنا الطلاب الذين يتعلمون فى مختلف مراحل التعليم ـ فهذا عمل عظيم، وتفكير طيب، واتجاه مشكور؛ لأن الأمة المتعلم أبناؤها تخطو إلى المجد، وتسعى للكمال والرقى، خاصة إذا كان

(١) سورة محمد ـ من الآية ٤.

العلم مقترنًا بالأخلاق والتحلى بالفضائل الطيبة. والإسلام له الفضل الأكبر فى توجيه الأمة إلى العلم والتعلم؛ ليتسنى لها استخراج ما فى باطن الأرض من كنوز وخيرات، وتسخير قوى الكون لمنفعة الإنسان، وليس هناك اعتراض على ذلك مادام يرتبط بالمصلحة العامة، لكننا نلفت النظر إلى تلك الجامعة الشعبية العظيمة التى أسهمت على مدار التاريخ بالدور الأكبر والنصيب الأعظم فى رقى الإنسانية وتقدمها.. إنها تستوعب طبقات الشعب بلا تفرقة بينهم، . فلنجعل منها مكانًا يتردد فى جنباته العلم، ويدوِّى صوت المعلم يعلم القرآن، أو ينشر الحكمة، أو يدرس كتاب طب، ولا خرج فى هذا؛ لأن المساجد الشاهقة المتعددة الآن يؤدى المسلمون فيها صلاتهم، ثم تُغْلَقُ من خلفهم وتظل جدرانها تنعى من بناها لهذا الهجران ممن حولها.

لقد أصاب المسجد ركود؛ لأننا أغفلنا أروع أدواره، فسقطت رايته بلا مبرر. إن المسجد الذى كان متوائمًا مع ركب الحياة، وعاشت الكلمةُ بين جدرانه تحثُّ على العمل والحضارة، تلك الكَلِمَة ذات الأثر الفَعَّال والتى تقوم على قوة المادة والروح، فعلى المسئولين الآن أن يتجهوا إليه، ويتخذوه مكانًا تربويًا، علمًا بأن الكثير من مساجدنا الأثرية بجوارها مدارس مغلقة الحجرات، مملوءة بالتراب، فى حاجة إلى لفتة كريمة، وعمل جاد من شخص يحمل أمانة المسئولية؛ ليعيد للمكان مجده، وللمسجد رسالته.

إن رسالة المسجد العلمية لاينكرها إلا جاحد، كمن ينكر الشمس فى وسط النهار، ليس على عينيه سحابة، وليس بهما رمد، ولا برأسه صداع. وإن الثورة العلمية التى نبعت من المساجد فى عصر النبى ﷺ، وعصر أصحابه، والتابعين، وعصر النهضة الإسلامية ـ لأَكْبَرُ شاهد ودليل صادق على أثر المساجد فى النهضة العلمية التى دفعت ركب الإنسانية إلى التقدم والحضارة والازدهار.

ولما كان المسجد جامعة شعبية، يدخله كل أفراد المجتمع للتعلم بلا تقيد

بسن، أو الحصول على شهادة مسبقة، أو رسوم، كذلك لايفرق بين ذكر وأنثى؛ لأنه جاء فى الأثر: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ». وفى صحيح مسلم: أن أسماء بنت يزيد الأنصارية خطيبة نساء العرب ورسولهن إلى رسول الله ﷺ، ـ قد بايعت النبى ﷺ عند مَقْدَمِه إلى المدينة، وتلقت عنه الكثير من العلم، وتخرج عليها كثير من التابعين، وكانت ـ رضى الله عنها ـ من أَبْيَنِ الناس وأفصحهم لسانًا، وأجرئهم فى مواطن الحق، حتى دُعيت خطيبة النساء، عمرت بعد رسول الله ﷺ دهرًا طويلا، وحضرت موقعة اليرموك تسقى الجرحَى وتُداويهم، فلما جَدَّ جدُّ المسلمين أخذت عمود خيمتها وانغمرت فى الصفوف تضرب الأعداء حتى صرعت تسعة من الروم.. هذه المرأة أتت النبى ﷺ وهوبين أصحابه فقالت:

«بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك.. إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلـهك. إنَّا ـ معشر النساء ـ محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم ـ معاشرَ الرجال ـ فُضِّلْتُمْ علينا بالجُمَعِ، والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرًا أو مجاهدًا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أَفَنُشَارِككم فى هذا الأجر والخير؟».

فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه؟ قالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا. فالتفت النبى ﷺ إليها وقال: «افهمى ـ أيتها المرأة ـ وأَعْلِمِى مَنْ خَلفك من النساء أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته ـ يعدل ذلك كله».

ولقد انصرفت بعد سماع ذلك وهى تهلل وتكبر، حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله ﷺ، ففرحن بذلك.

وإذا كانت المرأة فى صدر الإسلام قد عز عليها أن يكون وقت الرسول ﷺ كله للرجال دون النساء، فسألته أن يجعل لهن يومًا فى الأسبوع، فأجابهن إلى طلبهن، فإذا كان اليوم المخصص لهن جلس إليهن رسول الله ﷺ وأقبل عليهن، يجيب السائلة، ويهدى الحائرة، ويرشد المرأة إلى النهج القويم. وإذا كنا نحن بصدد عطاء المسجد العلم لجميع أفراد الجنس البشرى بلا تفرقه بين ذكر وأنثى ووعينا حديث أسماء الأنصارية ـ فجدير بنا أن نتذكر أن أول قلب خفق بالإسلام وتألق بنوره هو قلب امرأة فاضلة نُقِشَ اسمها بحروف من نور على جبين الزمن، إنها السيدة الفاضلة ـ أُم المؤمنين الأولى ـ خديجة بنت خُوَيْلد، التَى لها من زكاء الحَسَب وبُعْد الرأى، ما يجعلها فى مقدمة النساء. ولقد كانت مبعث غبطة للنبى ﷺ لسبقها للإسلام وعدم التردد، بل قالت لزوجها: إنك لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحمل الْكَلَّ، وتُكْسِب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق.

وهناك السيدة زينب بنت الإمام على، والسيدة سكينة بنت الإمام الحسين، نِعْمَ المثل الرائد للمرأة فى العلم والأدب والخطابة. وإذا كان الإسلام بسماحة تعاليمه طَهَّرَ نفس المرأة من نزعة الحقد والغل، فإنه كذلك حَسَرَ عن عقلها حجاب الجهل، ونزع عن إدراكها غشاوة الأباطيل بما شرع وبَيَّنَ من أمور فى منهاجه الكريم، وهَدْىِ نبيه العظيم واستلهمت المرأة ذلك عبر التاريخ من المسجد الجامع الذى كانت تتردد عليه مصلية متفقهة فى الدين متعلمة.

ولقد كان للمرأة لحاق بالرجل فى شتى فنون العلم والأدب، والمرأة المسلمة التى تعلمت فى المسجد امتازت بالصدق فى العلم، والأمانة فى الرواية. جاء فى طبقات الشافعية أن الحافظ بن عساكر ـ المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو من أوثق رواة الحديث، حتى لقبوه بحافظ الأمة ـ كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء! وما لنا نذهب بعيداً وزوجات رسول الله ﷺ أَذَعْنَ العلمَ، وأَفَضْنَ فى نشر الدين، وكانت السيدة عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ والسيدة حفصة، تعرفان القراءة والكتابة، وكانت الشّفاء

بنت عبد الله إحدى ذوات الرأى والقول الفصل، وهى من بنى عدى بن كعب، وممن سبقن للإسلام بمكة، وهاجرت إلى المدينة، وهذه كانت تجيد القراءة والكتابة، وقد علمت السيدة حفصة، رضى الله عنها.

لقد نضرت المرأة جوانب الأدب العربى، وأضاءت مذاهبه، ورققت مشاربه، وزكت فنونه بما أثمرت قريحتها، ثم هى فى العلوم الأخرى برزت فيها ولم تتخلف فى أى فن من الفنون، متجملة فى ذلك بالخُلُق والعِفَّة وعدم الابتذال؛ ذلك لأن المرأة العاملة المتعلمة هى التى تحسن تربية أولادها، رجال المستقبل، وعُمَّار الكون، وأسس التقدم، وبُنَاة الحضارة، فهى بعلمها تعلم؛ لأن الأم هى المدرسة الأولى للطفل، وعلى هذا فإن الإسلام ـ ومدرسته المسجد ـ لم يضنا على المرأة كما لم يضنا على الرجل بالعلم النافع الذى يهذب القلب ويسمو بالروح.

على أن الإسلام قد أعطى هذا للمرأة؛ لتكون شريكة للرجل فى العلم وتحصيله، ولكنه أخذ على المرأة ألاَّ تتشبه بالرجل فيما هو خاص به، ومن ألزم أموره، كزيِّه، وهيئته، فى الجلوس، والمشى، والكلام، وما شَاكَلَ ذلك من الأمور الخاصة بالرجال؛ ذلك لأن رسول اللّه ﷺ قد لَعَنَ المسترجلات من النساء، كما لعن المخنثين من الرجال، أما تشبهها بالرجل فى علمه ورأيه الصواب فأمر محمود، وإذا كانت الجامعات والمدارس فتحت أبوابها للشباب والفتيات، وليس هناك مكان مخصص للفتيات فى دور العلم، فليس العيب فى الإسلام، وإنما العيب فى التطبيق، وكذلك المواصلات العامة، وقِسْ على ذلك ما شابه ذلك، فإن العيب كما قلت فى التطبيق، ولو أننا رجعنا إلى الإسلام وطريقته فى رسم المنهج وتحديد الخطة للحصول على العلم لعرفنا أننا إنْ طبقنا أسلوبه من الفصل بين الجنسين لسعدت الأمة، ثم هناك منهج لهذا ومنهج لتلك، أو يدرس المنهج موحدًا، المهم أن يكون هناك فصل بين الجنسين، مع تحديد المركبات لكل جنس؛ لأنه ـ حتى فى المسجد الذى جاء فيه: «لا تمنعوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ الله» ـ جاء فى الأثر أن أفضل صفوف الرجال أولها، وأفضل

صفوف النساء آخرها، مع الفصل بين الجنسين بالصبيان الذين لم يبلغوا الحلم. إن الإسلام الذى يعمل على صقل العقل بالعلم يعمل كذلك على صقل القلب بالطهارة، وغسل النفس من الوساوس الشيطانية. ومَنْ يُرِدِ الله به خيراً يُفَقِّهْهُ فى الدين.

ألا فليتنبه عقلاء الأمة، وليعملوا على تجديد رسالة المسجد، وإعادة الحياة إليه كجامعة شعبية، ومعهد علم، ومكان عبادة تُؤَدَّى فيه الصلوات الجامعة التى تهذب النفس، وتسمو بالروح، وتنزع الغل والحقد والبغضاء من نفس مؤديها، وصدق اللّه العظيم: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1].

هذا، وكفى العلم منزلة أنَّ أول الآيات التى نزلت من كتاب ربنا تُرْشِدُ إليه وتُوَجِّهُ للأخذ بأسبابه هى قول الحق سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

وكفى المسجد فخراً أنه السَّبَّاقُ فى مضمار العلم والدعوة إليه، والحث على تحصيله من أخص خصائصه. كما أن العلم هو أول شىء تعلمه آدم عليه السلام تلقيا من الله سبحانه ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[3].

إن بذل الجهد الآن مطلوب من كل شخص على قدر طاقته، وخاصة أننا فى معركة البناء نحتاج إلى مداد العلماء ودماء الشهداء، وعرق الحياة، وقوة العزمات، على أساس فكر واضح مستنير يتجه إلى تفجير الطاقات الروحية الأصيلة للأمة الإسلامية، وتوجيه تلك الطاقات بكل كفاءة وإخلاص، من أجل

---

(١) سورة العنكبوت ـ من الآية ٤٥.

(٢) سورة العَلَق ـ الآيات من ١ ـ ٥.

(٣) سورة البقرة ـ من الآية ٣١.

تحقيق النظم الإسلامية، ولن يتأتى ذلك إلا لمن تربوا على مائدة الإسلام، وفى رحاب المسجد، الذى فى قدرته أن يقدم خدمات متعددة وفقًا لمتطلبات الحى أو البيئة، وهذا يختلف من حى لآخر، ومن بيئة لأخرى.

لقد حث نبى الإسلام ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى الغُدُوِّ إلى المسجد؛ لأنه مصدر الإشعاع الفكرى السليم، فيقول فى الحديث الذى رواه مسلم: «أفَلاَ يغدو أَحَدُكُم كُلَّ يَوْمٍ إلى المسْجد فَيَتعلَّمُ، أو فَيَقْرأُ آيتين مِنْ كتَاب الله عز وجل، خَيْرٌ له مِنْ نَاقَتَيْنِ، وثلاثٌ خيرٌ مِنْ ثَلاثٍ، وأربعٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعٍ ومِنْ أعْدَادِهِنَّ مِنَ الإبِلِ».

وفى حديث رواه ابن ماجه، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ جَاءَ مسجدي هَذَا لَمْ يَأْته إلاَّ لِخَيْر يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَة المجاهِدِ فى سَبِيلِ الله ،ومَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فهو بمنزلة الرَّجُلِ يَنْظُرُ إلى مَتَاعِ غَيْرِهِ».

ونقف أمام تلك النصوص نتبين منها أن المسجد كان مركزًا للتعليم والتوجيه إلى كل خير، والتفقه فى الدين، والرسول ﷺ بينما هو فى المسجد جالس والناس معه إذْ أقبل ثلاثة نَفَرٍ، فأقبل اثنان إلى الرسول ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فُرْجَةً فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنَ النَّفَرِ الثَّلاثَة؟ فَأَمَّا أَحَدُهُمْ فَأوى إلى الله فَآوَاهُ الله، وأَمَا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحيَا اللهُ مِنْهُ. وأَمَّا الثالثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ».

لقد كان المسلمون يتدارسون القرآن، ويتعرفون على الحلال والحرام فى المساجد، والحلال هو الشىء المباح الذى أَذِنَ الشرع فى فَعْله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1].

(١) سورة الأعراف ـ من الآية ٣٢.

والحرام هو الشيء الذى نهى الشارع عن فعله نهيًا جازِمًا، وهو يتسم بالشمول، فليس هناك شيء حرام على الأسود حلال للأبيض، لا، بل ليس هناك خصوصية تجعل الحرام على غيره حلالاً له، كلا، إن الله رب الجميع، والشرع سيد الجميع، ومِنْ هنا كان المسلمون يتدارسون ذلك، ويتعرفون على المبادئ التى قررها الإسلام. ومن القواعد المعروفة أنه ما أَدَّى إلى الحرام فهو حرام، وما كان نَفْعُهُ أكبر فهو من الطيبات الحلال، وصدق الله العظيم إِذْ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[1].

إن العقل هبة من الله، ينميه التفكير، ويغنيه العلم، وتقوى الله والخشية منه هى التى توصل إلى الفهم السليم لقضايا الإنسانية، ويتجاوب الفرد بسبب ذلك مع أبناء جنسه فى أداء الواجب قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾[2].

* * *

(١) سورة المائدة ـ من الآية ٤.

(٢) سورة البقرة ـ من الآية ٢٨٢.